المحاضرة الرابعة من السداسي الثاني

تمهيد

العمل التطبيقي الميداني الفعال في علم الآثار له أهمية بالغة من غير شك في تحديد مواقع الحضارات، وتجمعات السلالات الباكرة في مختلف مناطق العالم وحصر أماكن وجودها وضبط محيطها الجغرافي على الخريطة الأركيولوجية، وجرد اللقى الأثرية المتبقية على السطح كائنة ما كانت في مادتها وحجمها، وطبيعتها. ومن أجل معرفة هذه الأشياء وجب القيام ببعض الأعمال الميدانية، والاحتكاك المباشر بالمواقع الأثرية للإحاطة بجملة المعطيات العلمية ومن ذلك لجوء علماء الآثار إلى انجاز ما يعرف بالمسح الأثري، وهي عملية شبيهة بما يقوم به الطبيب الجراح إلى حد قبل إجراء عملية نوعية رغم اختلف الأساليب والوسائل المستعان بها في كلتا الحالتين. فما هو يا ترى هذا العمل الميداني؟ وما هو مفهومه؟ وأهميته، وكيف تطوره وما هي أنواعه؟ هذا ما سوف نجيب عنه فيما يلي:

أولا: مفهومالمسح الأثري

1_ مفهومه

يطلق مصطلح **المسح الأثري** باللغة العربية، و (**prospection Archéologique**) بالفرنسية، و(**Archeological Survey**) بالإنجليزية[1]، على تلكالعلمية الدالة على مجهود معين يبذله علماء الآثار بغية استقصاء حقائق ووقائع طبيعية في المادة الأثرية من أجل الجرد الأولي لها ورصدها في ميدان البحث ومعرفة آفاقها

[1]_ Louise Iseult : **L'archéologie pourquoi, comment**, édition électronique, Québec, Canada, 2005., pp, 7-12.

المتنوعة[2]. ولا شك أن الاهتمام بهذا المنهج المعرفي بدأ مع ظهور الاهتمام الواسع بالتنقيب المنهجي المركز عن الآثار، والحضارات القديمة في الشرق الأدنى على ضفاف نهري دجلة والفرات في العراق على عصري السومريين، والأكاديين، ووادي النيل في مصر الفرعونية[3].

كما يعتبر المسح الأثري لدى الكثيرين من الباحثين عملية مشاهدة، أو معاينة ميدانية لمختلف الآثار سواء كانت ثابتة مثل المدن المندثرة، أو العمارة العسكرية، أو الدينية، والجنائزية، أو منقولة من شقف الفخار، والخزف، والزجاج، والعاج، والحلي وما إليها. ويتم ذلك الأمر أي وصفها توصيفا دقيقا في مواقع وجودها من غير تحريكها من موضعها، أو نقلها من أماكنها الأصلية في الأطلال والخرائب[4]. وذلك من أجل اختيار الموقع الذي يمكن القيام بعملية الحفر فيه[5].

علاوة على أن المسح يعتمد لتحديد المواقع والمعالم الأثرية، والنصب التذكارية على الخرائط الطبوغرافية، والصور الشمسية الملتقطة من خلال الريادة الجوية للمواقع الأثرية التي يجب أن تكون ارتفاع الطائرة المستكشفة في حدود 500م – 1000م على مستوى سطح البحر[6]، الشيء الذي سهل مهمة الوصف كثيرا[7]. وقد أسهم الاستشعار عن بعد بواسطة الأقمار الصناعية، والأجهزة الرقمية المتطورة مثل الماسح الضوئي، والوسائل والطرق العلمية الأخرى المستعملة في الكشف عن التلال الأثرية المدفونة وهذا دون إجراء أي حفرية، أو

---

[2]_ Albert Hesse, « **La prospection archéologique : des mesures extensives sur deux dimensions de l'espace** », in Histoire et mesure, volume 9_ n° 3-4, Archéologie II, France, 1994., p, 213.

2_ عبد الله حسن: **مفاهيم جديدة للمسح الآثاري وعلاقته بحركة التنقيب عن الآثار ومشكلاتها في الوطن العربي**'المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، إدارة الثقافة، تونس،1989.، ص، 11

3_ محمد البشير الشنيتي: **علم الآثار تاريخه، مناهجه، مفرداته**، دار الهدى للنشر والتوزيع،عين مليلة، الجزائر، 2013.، ص، 93.

[5]_ عاصم محمد رزق: **علم الآثار بين النظرية والتطبيق**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.، ص، 93.

[6]_ Zeyad al- salameen : **IllustratedDictionary of archaeologicalTerms, (English- Arabic),** 2012. p , 222.

[7]_جورج ضو: **تاريخ علم الآثار**، ترجمة بهيج شعبان، ط2، منشورات عويدات بيروت، باريس، 1982.، ص، 65.

اللجوء إلى أعمال التنقيب التقليدي مهما كان نوعها. تبعا لما تقدم يتضح أن المعاينة الميدانية للموقع قبل بدأ الحفر فيه ينبغي أن تكون شاملة، بحيث يجب الاطلاع على الأعمال السابقة التي أجريت عليه. زيادة على ضرورة مراجعة الوثائق التاريخية المستقاة من مؤلفات الأقدمين الخاصة به، ودراسة الناحية الجيولوجية وطبيعة التربة، ونوع النباتات المزروعة، وأنواع المحاصيل الزراعية هنالك أيضا[8]. ومن هذا المنطلق تظهر ضرورة المسح الأثري في الميدان قبل القيام بعملية الحفر[9]. ينظر الصورة رقم: 1

تبعا لما سبق نستنتج أن المسح الأثري ما هو في الحقيقة إلا البحث عن الآثار في مواقعها والقيام بوصفها وصفا علميا دقيقا دون اللجوء إلى عملية الكشف عن اللقى والعاديات عن طريق الحفريات المكثفة والمتواصلة عبر حملات التنقيب التي يمكن أن تستغرق سنوات طويلة وهذا بقطع النظر عن المناهج المختلفة والوسائل التي استخدمت في الكشف تلك الآثار سواء كانت قديمة أو متطورة[10].

2_ أهمية المسح الأثري

تكمن أهمية المسح الأثري في القيام بالمعاينة الميدانية المباشرة للاحتكاك مع الآثار بطرق تقليدية بسيطة من أجل جرد وتسجيل وحصر الأماكن ذات الطبيعة الأثرية من مواقع وشواهد ملموسة ثابتة أو منقولة، ولقى أثرية مختلفة مبعثرة هنا وهناك. فالمسح يعني أيضا فيما يعنيه دراسة المواد السطحية الظاهرة(surface- material)يضاف إليها المواد

1_ جاردنر: **علم الآثار**، نقله إلى العربية محمود حمزة، وزكي محمد حسن، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936.، ص، 82.

[9]_ Albert Hesse : **op.cit.**, p, 215.

3_ الصادق باعزيز: **المسح الأثري وتوضيح المفاهيم نشر ضمن كتاب المسح الأثري في الوطن العربي**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1993.، ص، 12.

الموجودة تحتالسطح في سويات وطبقات معينة داخل الحقل الأثري، وهي متممة،ومكملة للقى الأثرية الموجودة على السطح[11](sub – surface material). ينظر الصورة رقم: 2

ثم أخذ يتطور بشكل مطرد ومتسارع باستعمال الأجهزة الرقمية المتطورة الذكية عالية الدقة والجودة، ولم يعد القيام به من أجل التمهيد لعملية الحفر في مكان ما وتسجيل أعداد وأنواع المواقع الأثرية كما هو الحال في الماضي البعيد والقريب في القرون التاسع عشر والعشرين الميلاديين بل تعدى ذلك وأصبح له أهداف معرفية تعليمية تعلمية أخرى أوسع ترتبط ارتباطا وثيقا بمضمون البحث الأثري نفسه. لقد توصل علماء الآثار إلى استنتاج معلومات عميقة الدلالة التاريخية، والحضارية، ونتائج مرضية مرتبطة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية والدينية الخاصة بساكنة المواقع المختلفة عبر المسح الأثري الذي أنجزوه دون قيامهم بأعمال الحفر، والتنقيب وهذا بتحليل ومقارنة عينات، ومبان ظاهرة على السطح شملها المسح الأثري[12]. يفضله الكثير من الباحثين على الحفرية لسهولة وسرعة تنفيذه على أرض الواقع وقلة تكاليفه وجهدهالمحدود مقارنة بالحفرية التي تتطلب وقت أطول قد يستغرق سنوات طوال تتطلب مواسم عديدة، وأموالا كبيرة لا يمكن في العادة توفيرها في موسم الحفرية العادي (campagne de fouille) الذي لا يزيد في الغالب عن الشهر او الشهرين . وزيادة على هذا يسهم المسح الأثري في تقديم تكوين شامل للطلبة في مختلف أنواع المعالم والبقايا التاريخية لعديد الحضارات السابقة، خلاف الحفرية التي ترتكز على دراسة موقع واحد بمعزل عن المنطقة الموجودة بها وكلاهما مكمل للآخر في ضوء التراكمات المعرفية المتتالية. كما يتم التعرف من خلال هذه العملية على الاستيطان البشري في مواطن عديدة على الرقعة الجغرافية الأثرية مع إمكانية التطرق إلى مجمل نشاطاته العمرانية، والحرفية، وحتى الملاحية منها إذا كان في البحار والمحيطات أو على الشواطئ والخلجان. وتجدر

---

[11]_ صباح جاسم الشكري: **دور أعمال المسح والتنقيب الآثاري في كتابة تاريخ العراق القديم**، ص، 75.

[12]_ Nadine Dieudonné : « **La prospection au sol étude bibliographique**», revue Archéologique du centre de la France, tome 28, fascicule2 , 1989., p, 218.

الإشارة هنا أن المسح الأثري ساعد على حماية الكثير من المواقع الأثرية، ذلك أن مخططات إصلاح الأراضي، والمشاريع الحكومية الضخمة ذات الصالح والنفع العام من مثل أعمال البناء، وشق الطرقات ومد المناطق المختلفة بقنوات المياه أو أنابيب الصرف الصحي، وأنابيب الغاز، وأعمدة الكهرباء عالية التوتر، وشبكات الأنترنت أدت في مرات عديدة إلى تخريب بعض الآثار المجهولة التي كان منفذو تلك المشاريع يعثرون عليها خلال مجريات تلك الأعمال الكبرى، وذلك عن طريق الصدفة وحسب. ولولا عملية المسح في أحايين كثيرة متكررة لقضي على كل المواقع المدفونة التي لم تخرج إلى النور بعد بالكامل وربما لم يصلنا شيء من أخبارها.

3_ تاريخ المسح الأثري

ورد في المصادر التاريخية، والكتب الجغرافية اللاتينية، والإغريقية القديمة وصفا دقيقا لمواقع الحضارات القديمة لا سيما منها الإغريقية واللاتينية وما سواها. كما ذكرت المصادر العربية أيضا منها كتب الجغرافية، والرحلة على سبيل الذكر التي وصفت البلدان والأقاليم والمسالك والممالك وذكرت المعالم الأثرية في المدن المندثرة مثل ما جاء في صورة الأرض لأبي القاسم محمد بن علي الموصلي ابن حوقل النصيبي من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي (ت: 367هـ/ 977م)، و أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ت: 380هـ /990م) ، والبكري صاحب كتاب المسالك والممالك في القرن الخامس الهجري (ت: 487هـ/1094م/)[13]. والإدريسي صاحب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق (ت: 559هـ/ 1166م)، والزهري في كاتبه الجعرافيا (ت: السادس الهجري)، وأبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد المغربي في الجغرافيا (ت: 685هـ / 1286م). زيادة على رحلة محمد ابن أحمد ابن جبير الكتاني، ومحمد

1_ أبو عبيد البكري: **المسالك والممالك الجزء الخاص ببلاد المغرب**، دراسة وتحقيق زينب الهكاري، تقديم أحمد عزاوي، رباط نت، المغرب، 2012.، ص، 9-16.

بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة (ت: 779هـ/ 1377م)، وأحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي ابن فضلان صاحب رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار وغيرهم من الكتاب العظام الذين كان لهم باع طويل، وإسهام في إثراء الحضارة العربية الإسلامية ورقيها في المجالات العلمية التي ذكرناها قبل حين. وهي دون شك حتى وإن صنفت ضمن الكتابات الجغرافية العربية أو أدب الرحلة إلا أنها أيضا تحمل في طياتها جانبا لا يقل أهمية علمية معرفية في الجانب التاريخي والأثري معا عما ذكر في المدونات والمصنفات الكبرى. لأن إدراجهم وصف المواقع الأثرية لا يعتبر بداية للاهتمام بالمسح الأثري بل جنوح نحو معرفة سر تلك المدن وما تنطوي عليه من مخلفات حضارات مادية ثابتة أو منقولة شاهدة على نشأة وتطور ثم أفول تلك الأمصار والكور والمدن التي امحت معالمها وأصبحت في طي النسيان أثرا بعد عين. ذلك أن الاهتمام بالآثار كعلم له مناهجه ومدارسه وأدواته لم يكن ذا بال في تلك الفترة من العصور الوسطى[14]؛ ولا ريب أن الأعمال التي قام بها المستشرقون والمستعربون الغربيون من خلال انكبابهم، ومواظبتهم على دراسة تلك الرحلات وكتب الجغرافية والتعمق فيها خلال القرون الثامن عشر والتاسع عشر الميلادين مكنت من ظهور الاهتمام بالمسح الأثري. وجاء هذا حتمية لتطور علم الأثار في حد ذاته من جهة وكثرة تلك الدراسات التي أجريت بناء على محتويات تلك المصادر العربية التي تقدم الحديث عنها من جهة ثانية.

---

[14]_ Anthony M. Snodgrass : « **La prospection archéologique en Grèce et dans le monde méditerranéen »,** annales, France, 1982., p, 803.